(أنتم أعلم بأمر دنياكم(

د. عبد البديع بن حمزة زللي

فهم كثير من الناس أحاديث تأبير النخيل فهما خاطئا من خلال قوله صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بأمر دنياكم). وظنوا أن جميع الأمور الدنيوية التي حدث عنها المصطفى صلى الله عليه وسلم هي من أمور الدنيا فقط، لذا فهي تخضع لهذا القول، الأمر الذي يعرض الأحاديث النبوية المتعلقة بالأمور الدنيوية إلى التعطيل. وهذا الأمر جد خطير.

ولقد خاض في هذا الأمر كثير من العلماء منذ القدم وخاصة أولئك الذين اهتموا بأمور الفلسفة، وعلوم الطب والعلوم الدنيوية الأخرى، وقد يظن بعضهم خطأ أن في تعميمهم قول المصطفى صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بأمر دنياكم) على جميع الأحاديث النبوية المتعلقة بأمور الدنيا ومعيشتها ما يحمي هذه الأحاديث من انتقادات غير المسلمين حول هذه الأمور، لذلك نجد بعضهم قد أخذ يؤكد أن ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في أمور الدنيا ومعيشتها هي من اجتهاده، مستشهدين ببعض الأحاديث النبوية المتعلقة بأمور الطب مثلا، وهم لم يفهموها فهما جيدا، ويدركوا المعاني الدقيقة من أقواله صلى الله عليه وسلم فيها. وذلك اجتهادا منهم لحماية أقوال المصطفى صلى الله عليه وسلم من أي طعن أو تشكيك، وخاصة عندما يبدو للملحدين تعارض وهمي بين نتائج العمل التطبيقي وبين أقوال نبي الهدى صلى الله عليه وسلم، فيسيئون بذلك إلى أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم من حيث يحسبون أنهم يحسنون، وما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن أمور الدنيا هو حق لا مرية فيه ولا شك فيه، حتى وإن بدا في بعض هذه الأحاديث تناقض ظاهري فمرده إلى عدم معرفة الأسباب التي أدت لذلك، وعدم معرفة المعاني الدقيقة التي تشملها أقوال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث، بل العكس فهذه الأحاديث تكشف لجميع البشر عن معجزة من معجزات النبوة التي تدلنا على أمر دنيوي ما، لم يعرف الناس عنه شيئا في ذلك الحين، ولم تظهر حقيقته إلا بعد أن توسعت العلوم والمعرفة، وبعد أن تطورت الأجهزة والمخترعات، لكن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد سبق العلماء والعلم الحديث، وأشار أو كشف عن الحقائق العلمية الخاصة بهذا الشأن، وهو لم يكن أبداً طبيبا أو عالما فلكيا أو عالما في أمور الدنيا كلها، ولكن الله سبحانه وتعالى كان يعلمه بهذه الأمور فعرفها وعرّف الناس بها، مما يدل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ورسالته.

نعود ونقول إن من الأمور التي جعلت مثل هؤلاء يتجرأ ون على أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم هو ما قد يظهر من تعارض وهمي بين ما ورد في بعض الأحاديث النبوية المتعلقة بالأمور الدنيوية، وبين نتائج التطبيق الفعلية، في حين لو تدبروا فيها وتأملوا بعمق علمي، لوجدوا أن الحقائق العلمية تنسجم مع هذه الأحاديث انسجاما مذهلا، وتتكشف لنا منها معجزات نبوية، وهذا التعارض الوهمي مرده في الأصل إلى عدم تطبيق أقوال المصطفى صلى الله عليه وسلم كما ينبغي أن تُطبّق، فعلى سبيل المثال لا الحصر، هنالك أحاديث نبوية كثيرة متعلقة بأمور الطب النبوي، وفي هذه الأحاديث نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم يصف لنا مادة أو غذاءً ينفع في علاج مشكلة معينة، وقد يستخدم البعض هذه المادة أو ذلك الغذاء دون مراعاة الشروط اللازمة في الاختيار والتطبيق، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور ما يبدو ظاهريا نوعاً من التعارض الوهمي بين نتيجة التطبيق وبين قول المصطفى صلى الله عليه وسلم

المتعلق بهذا الأمر، في حين أنه لو أننا فهمنا قول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم فهما صحيحا، وأدركنا المعاني الدقيقة من هذا القول تمام الإدراك، وطبّقنا الطب النبوي التطبيق الصحيح السليم، لظهرت لنا مباشرة تلك الفائدة المرجوة من هذا التطبيق، غير أننا قد لا ننتبه إلى هذه الأمور عند تطبيق الطب النبوي لمعالجة مشكلاتنا الصحية، فكل مخلوق أو مادة توجد على هذه المعمورة تتخلق أو تتكون وفق فطرة ربانية سليمة، وبكل مخلوق نباتي أو حيواني يتغذى حسب هذه الفطرة تغذية معينة، وإذا وجدنا قولا للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يصف لنا مادة أو غذاءً لعلاج مشكلة صحية معينة، فعلينا إذاً أن نستخدم هذه الأشياء وقد تكوّنت أو تخلّقت أو تغذت حسب الفطرة الربانية الصحيحة السليمة، أما إذا غيّر الإنسان في فطرة التغذية والتخليق، فعليه أن يتوقع أيضاً تغيراً في الأثر الصالح النافع المرجو من هذه الأشياء التي غير في فطرة تخليقها أو تغذيتها أو تكوينها.

فهم الأحاديث النبوية المشرفة

عموما قد يفهم بعض الناس أقوال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم فهما ظاهريا دون أن يتفكروا ويتأملوا في هذه الأقوال، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (نضّر الله امرأ سمع منا شيئا فبلّغه كما سمعه فرب مبلّغ أوعى من سامع.(

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا حقا في مزحه ومداعبته، في غضبه ورضاه، في أمور الدين كلها وأمور الدنيا. ولقد وردت في المسند (أن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قلت يا رسول الله: إني أسمع مقالة أفأكتبها؟ قال: نعم، قلت: في المغضب والرضا؟ قال: نعم، فإني لا أقول فيهما إلا حقا). ولقد صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بنفسه بعض المزارعين إيقاف تأبير النخيل، ونُقل هذا الخبر إلى بعضهم.. فخرج بعض التمر شيصا (الشيص رديء التمر). فقال الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك أقوالا مختلفة حسب اختلاف الزمان والمكان والحادثة المرتبطة بذلك، لأن وقائع إيقاف تأبير النخيل لم تخص فئة واحدة من المزارعين، ولا مكانا واحدا ولا زمانا واحدا، بل تدل الأحاديث التي وردت في هذا الشأن أن وقائع إيقاف تأبير النخيل كانت في أزمنة وأماكن مختلفة ومع أقوام مختلفين من المزارعين، ومنهم من خصهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالزيارة، وأمرهم بإيقاف تأبير النخيل ثم خصهم بالزيارة مرة أخرى عندما ظهرت النتائج وقال صلى الله عليه وسلم قوله المعروف: (
أنتم أعلم بأمر دنياكم
).

ولقد فهم بعض الناس هذا القول فهما خاطئا دون أن يتأملوا المعاني الدقيقة التي يشملها هذا القول، ودون أن يفكروا أو يتأملوا في الحكمة من إيقاف تأبير النخيل، إذ خُيِّل لبعضهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلم بدور ووظيفة تأبير النخيل، وما هي الفائدة المرجوة من ذلك، كما خيل لهم أيضاً أن أمره صلى الله عليه وسلم بإيقاف تأبير النخيل كان أمرا عارضا حدث فقط عند مروره ببعض القوم الذين كانوا يقومون بتلقيح النخيل، في حين أنه لم يكن شيئ من ذلك صحيحا. فالرسول صلوات ربي وسلامه عليه كان على علم ومعرفة تامة بدور ووظيفة التأبير والفائدة المرجوة منه.

فهل أدرك هؤلاء الحكمة من أمره صلى الله عليه وسلم؟

وكي نتأمل بيسر وسهولة الأحاديث التي وردت بخصوص إيقاف تأبير النخيل كان علينا أن نمر على جميع الأحاديث التي جاءت في هذا الشأن، فهذه الأحاديث تظهر لنا أمورا كثيرة منها:

1 ـ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان على علم ومعرفة بدور ووظيفة تأبير إناث النخيل وفائدة هذا التأبير ونفعه في إصلاح التمر من أول لحظة شاهد فيها عملية التأبير وذلك عندما أخبره الصحابة بدور ووظيفة هذا التأبير.

2 ـ أن أمره صلى الله عليه وسلم بإيقاف تأبير النخيل لم يكن أمرا عارضا بل كان يعنيه المصطفى صلى الله عليه وسلم لحكمة مخفية، فالرسول صلوات ربي وسلامه عليه كان يعرف خبرة المزارعين الطويلة في الزراعة عموما، وفي زراعة النخيل خاصة، ويعرف باعهم الطويل في هذا المجال، وكان من البديهي ـ والله أعلم ـ أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف أن نتيجة عدم تأبير النخيل ستظهر مباشرة عند موسم الحصاد، وسيأتي الناس ليسألوه عن ذلك.

3 ـ بالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم بأن أمر تأبير النخيل هو أمر دنيوي تظهر نتيجته بالإيجابية أو السلبية بالفعل أو عدم الفعل، وأنه صلى الله عليه وسلم قد عرف دور ووظيفة التأبير، لكننا وجدنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قام بالتحدث مع المزارعين وأمرهم بإيقاف تأبير النخيل، أو نقل هذا الأمر إلى بعضهم عن طريق الصحابة، كما ذهب إلى بعضهم بنفسه صلى الله عليه وسلم ليأمرهم بوقف تأبير النخيل، ثم عاد إليهم مرة أخرى بعد ظهور النتيجة ليسألهم بنفسه عن حالة تمرهم بعد أن صار شيصاً، وهو صلى الله عليه وسلم على علم بذلك.

كل هذه الأمور تجعلنا نفطن بأن هناك أمورا خفية وحكمة لا نعرفها من وراء هذا العمل، فليس كل ما وصل لنا من قول أو فعل للنبي صلى الله عليه وسلم يمكننا أن ندرك بشكل مباشر ما يقصده منه صلى الله عليه وسلم، بل لا بد لنا أن نتأمل في ذلك حتى تتكشف لنا المعاني الدقيقة لهذه الأقوال أو الأفعال، وتظهر لنا منها الحكمة المخفية علينا، أو جزء من هذه الحكمة.

لقد كشفنا في كتاب (لمحات مضيئة على أحاديث إيقاف تأبير النخيل) بعض الوجوه لتلك الحكمة الخفية من أمره صلى الله عليه وسلم بإيقاف عملية تأبير النخيل، ووجوهاً أخرى من الإعجاز العلمي في أحاديث إيقاف التأبير، ونكشف اليوم وجوهاً جديدة.

فما هي هذه الوجوه؟ وإلى أي شيء تهدف؟

أهم هذه الوجوه يتمثل في الكشف عن أسلوب من أساليب الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم في التعليم، فالهادي البشير والسراج المنير والمعلم الكبير ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ كان ينوع أساليب التعليم، ولعل ما كتبه فضيلة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ في كتابه: الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم وأساليبه في التعليم، يظهر لنا أهم هذه الأساليب، إذ تمكن الشيخ أبو غدة أن يحصي (04) أسلوبا من أساليب المصطفى صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس أمور دينهم ودنياهم، ذاكرا أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يختار في تعليمه من الأساليب أحسنها وأفضلها، وأوقعها في نفس المخاطب، وأقربها إلى فهمه وعقله، وأشدها تثبيتا للعلم.

ثم ذكر أن من درس السنة وقرأها بإمعان رأى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلون الحديث لأصحابه ألوانا كثيرة، فكان تارة يكون سائلا، وتارة يكون مجيبا، وتارة يجيب السائل بقدر سؤاله، وتارة يزيده على ما سأل، وتارة يضرب المثل لما يريد تعليمه.

ولعل التفكر والتدبر في أحاديث إيقاف التأبير يجعلنا نضيف إلى ما ذكره فضيلة الشيخ أبو غدة، أسلوبا آخر من أساليب المصطفى صلى الله عليه وسلم في تعليم كافة المسلمين، هذا الأسلوب يتمثل في التعليم من خلال نتيجة العمل، إذ يظهر أن هذا الأسلوب التعليمي من خلال أحاديث إيقاف التأبير وأحاديث أخرى. فقد كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يعمد إلى تطبيق بعض الأمور حتى يجعل الناس يستشفون بأنفسهم حقيقة هذا الأمر من خلال النتيجة التي تظهر. وإذا ما غفل الناس عن هذه الحقيقة وضحها وبيّنها لهم.

وهناك أمثلة مختلفة تبين لنا كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمد على تعليم الناس بهذا الأسلوب من خلال العمل والتطبيق، وجعل النتيجة كوسيلة تحث الناس على استدراك الحقائق بأنفسهم، فإن لم يفعلوا ذلك علمهم وأرشدهم إليها. ومن أمثلة تعليمه صلى الله عليه وسلم الناس أمور دينهم من خلال نتيجة العمل الإجابة على سؤال أحد الذين سألوا عن وقت صلاة الصبح وذلك من خلال التطبيق العملي. فقد جاء في الموطأ للإمام مالك ـ رحمه الله ـ أن رجلا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله عن وقت صلاة الصبح، فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد صلى الصبح حين طلع الفجر، ثم صلى الصبح من الغد بعد أن أسفر ـ أي بعد أن انكشف وأضاء ـ، ثم قال: (أين السائل عن وقت الصلاة؟) قال: ها أنا ذا يا رسول الله، فقال: (ما بين هذين وقت).

وبالنسبة لتعلم الناس أمور دينهم ودنياهم من خلال أمره صلى الله عليه وسلم بعدم التأبير، فإن هذا الأمر نستشفه من خلال سؤال يطرح نفسه، وهو:

هل تعلم المسلمون شيئا من أمره بعدم التأبير؟

لو تمعنا في هذا السؤال، لرأينا أن المسلمين قد تعلموا أشياء كثيرة من خلال نتيجة عدم التأبير، ومن ذلك ما يلي:

1 ـ تأكدت للمسلمين أولا وقبل كل شيء حقيقة أمور الدنيا وحقيقة أمور الآخرة. فأمور الدنيا ظنية لا تُعرف حقيقتها إلا من خلال الممارسة والتطبيق والتجربة. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم في مناسبة أمره بعدم التأبير: (إن كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به)، أما أمور الآخرة
فهي حقائق لا يجد الظن إليها أبدًا أي طريق أو أي ثغرة، فهي أمور قطعية، ولابد لنا أن، نرجعها إلى كتاب الله سبحانه وتعالى وإلى سنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.. ولذا فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في نفس المناسبة: (
وإذا كان شيئا من أمر دينكم فإليّ
).

2 ـ تعلم المسلمون أن إخضاع الشيء الدنيوي للتجربة والتطبيق يكشف لهم عن الحقيقة الدنيوية الخاصة بهذا الشيء، وبما أن أمور الدنيا ظنية تدخل في دائرة الظن، فلا يمكن الخروج من هذه الدائرة إلى دائرة اليقين إلا عن طريق التجربة. بل إن معظم الحقائق العلمية التي كشف العلم النقاب عنها بدأت أولا بالظن، فالشيء الدنيوي الذي يُظن بحدوثه أو عدم حدوثه لا يمكن أن تُعرف حقيقته يقينا ما لم نلجأ إلى التجربة والتطبيق، ونتائج التجارب الصحيحة هي التي تظهر هل حقيقة الظن إيجابية أم سلبية، ويبقى أمر الظن فيما يخص أمور الحياة في هذه الدنيا معلقا لا يعرف صاحبه هل ظنه صحيحا أم خطأ ما لم يخضع هذا الأمر الدنيوي للتجربة والتطبيق، فغالب الاكتشافات العلمية والحقائق لم يعرف حقيقتها الإنسان إلا بعد أن أخضع الأشياء التي يظن بحدوثها للتجارب التطبيقية. فأساس كشف الحقائق يعتمد على الظن، والتجربة هي المحك الذي يوضح هل هذا الظن صحيحا أم خطأ. فصدق من لا ينطق عن الهوى، أوليس هو القائل في بعض أحاديث إيقاف التأبير: (وإن الظن يخطئ ويصيب)صلى الله عليه وسلم وحتى تتجلى حقيقة هذا القول للعالم بأسره، كانت وقائع إيقاف التأبير هي التجربة والتطبيق الذي عرف الناس من خلاله كيف كانت حصيلة النخيل المحبة للقاح، غير أنه لم ينتبه الناس إلى الجانب الآخر من نتائج هذه التجربة، وهو الجانب الإيجابي المتمثل في معرفة تلك الأنواع من النخيل القنوعة باللقاح عن طريق الرياح والحشرات، والتي لا تحتاج إلى تأبير. فتجربة إيقاف التأبير أظهرت هذه الأنواع، غير أن نقص الحصيلة بصفة العموم في ذلك العام ربما جعل الناس لا ينظرون إلى تلك النخلات التي أنتجت ثمرا طيبا من غير تأبير.

ونعتز ونفخر بأن المنهج العملي الذي يتبعه علماء هذا العصر للكشف عن الحقائق العلمية إنما سبقهم به رسول الهدى صلى الله عليه وسلم فهو الذي أقر بأن أمور الدنيا لا يقف على حقيقتها وواقعها إلا من يعمل ويمارس عمله على الأمر الدنيوي المعني، ويُخضع هذا الأمر للتجربة والتطبيق، ولهذا فإننا نرى أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد قال لمن خص من المزارعين بالزيارة لإيقاف تأبير النخيل وخصهم بالزيارة بعد ذلك عند ظهور النتيجة (أنتم أعلم بأمر دنياكم)، ولم نجد في أحاديث إيقاف تأبير النخيل أنه قال هذا القول لغيرهم.

3 ـ تعليم المسلمين الأخذ بالأسباب في أمور الدنيا مع التوكل على الله. فالله سبحانه وتعالى خالق الأشياء وهو سبحانه مسبب الأسباب. فتأبير النخيل يعتبر سببا من الأسباب الذي جعله المولى سبحانه وتعالى لعقد ثمار النخيل شديدة ومتوسطة الرغبة في التلقيح، فلابد للإنسان أن يأخذ بالسبب ويتوكل على الله، فالسعي في السبب لا ينافي التوكل على الله، بل يشترط الأخذ بالأسباب.

ولأن عدم الأخذ بالأسباب في الأمور الدنيوية هو من التواكل وليس من التوكل، لذا نجد أن تشريعات الإسلام تؤكد على الإنسان دائمًا بأن يسعى في طلب الرزق مع توكله على الله، وألا يتواكل، والقرآن الكريم مليء بما يحث الإنسان على ذلك، وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم لا يترك فرصة مناسبة يجد فيها ما يعلم فيها المسلمين أمور دينهم ودنياهم إلا وقد أخذ بها.. لذا فقد قدم الهادي البشير والسراج المنير صلوات ربي وسلامه عليه ـ عندما أمر بعدم تأبير النخيل ـ الحجة الواضحة والبرهان القاطع لكل من سوّلت له نفسه على التواكل، وأثبت أن الأمور الدنيوية تتطلب العمل والجد والاجتهاد، وأن الإنسان الخامل لا يمكن أن يحصل ويجني أي مكسب ما لم

يعمل، ولهذا فكأننا بعدم تأبير النخيل نقول للمتواكلين: (انظروا إلى حصيلة ما يجنيه المتواكل).

وحتى لا يخطئ أحدنا ويتساءل: هل كان الصحابة الذين كانوا يشتغلون بزراعة النخيل متواكلين كي يخصهم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر صلى الله عليه وسلم، فنقول: حاشا وكلاّ، فالصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ كانوا قدوة في التوكل على الله، ولكن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وكما سبق أن أشرنا ـ كان يختار في تعليمه من الأساليب أحسنها وأفضلها وأوقعها في النفس. ولأن التواكل في الإسلام محظور، فكان لابد من تقديم دليل قاطع لكل الناس يفهمون منه مباشرة ما نتيجة التواكل إن فكروا أن يقدموا على هذا الأمر، وأحسن الأدلة والأمثلة التي يجب أن تقدم للناس لإدراك مفهومها بسرعة وسهولة، هي تلك الأدلة التي تنبع من نفس البيئة التي يعيش فيها الناس، ولقد عاش المسلمون الأوائل في بيئة فيها زرع ونخيل، وفهموا وأدركوا أمور هذه الزراعة وحصيلتها، لذا فأحسن دليل نجده في بيئة المدينة يدل على سلبية عدم القيام بالأعمال التي تتطلبها أمور الحياة، هو إيقاف التأبير، والله أعلم.

قائمة المراجع:

ـ ابن أنس، الإمام مالك، الموطأ، تصحيح وترقيم الأحاديث محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب الدينية.

ـ ابن حنبل الإمام أحمد (164 ـ 241هـ): مسند الإمام أحمد. ط بيروت: دار الكتب العلمية، 1413هـ/ 1993م.

ـ ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء. تفسير القرآن العظيم. ط2، مج، بيروت: دار المعرفة، 1407هـ/1987م.

ـ زللي، عبدالبديع حمزة، لمحات مضيئة على أحاديث تأبير (تلقيح) النخيل، ط1، المدينة المنورة، 1418هـ.

ـ زللي، عبدالبديع حمزة، وجوه متنوعة من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الجزء الأول: الإعجاز العلمي البلاغي واللغوي، ط1، المدينة المنورة، 1419هـ.

ـ زللي، عبدالبديع حمزة، مقدمة لعلوم التلوث البيئي، الجزء الأول: تلوث الهواء ط1، المدينة المنورة، 1419هـ.

ـ العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري. ط1، القاهرة: دار البيان للتراث، 1407هـ/1986م.

ـ يويريش، ن، العلاج بالعسل بيروت: دار القلم، ترجمة محمد الجلوجي.